



أبو بكر البرقاني

ومخطوطة
كتابه:

“الأوامر”

● الأستاذ عادل الفريجات ●



مؤلفاً هذا شيخ وفقيه ختيل، وهو عَلمٌ من أعلام القرن التاسع الهجري، ترك لنا مجموعة طيبة من الآثار والتصانيف، من بينها كتابه «الأوائل» الذي ستحدث عنه، بعد أن نلغز من الحديث عن صاحبه :

أولاً : المؤلف :

يُعرف شيخنا هذا بـ «الجَزاعي»، نسبةً إلى (جِزَاع) من أعمال نابلس. ولكن أبا بكر تقي الدين بن زيد لم يبق في بلده (جِزَاع)، بل تنقل في مناطق عربية شتى، إلى أن استقر به المطاف بدمشق، فمات بها في رجب من سنة ٨٨٣هـ.

والمصادر التي تروحت له لمُكنّا من الحديث عن مراحل معينة في حياته، لعل أبرزها نشأته وتكوينه في (جِزَاع)، ثم انتقاله إلى دمشق سنة ٨٤٢هـ، وإلى القاهرة سنة ٨٦١هـ، ثم إلى مكة سنة ٨٧٥هـ، وعودته أخيراً إلى دمشق، وتدرسه فيها بالمدرسة العمريّة الواقعة في الصاحية على سفح جبل قاسيون.

وقد ترك لنا أبو بكر الجَزاعي مجموعةً من التأليف متعرض لها في حينها. ويبدو أن السخاوي (٩٠٢هـ)، كان أبرز من ترجم هذا العلم الخليل، فقد قال في اسمه ونشأته الأولى : «أبو بكر بن زيد بن أبي بكر بن زيد بن عمر بن محمود التقي الحسني الجَزاعي الدمشقي الصالح الخليل ... ويعرف بالجَزاعي». وذكر أنه من ذرية الشيخ أحمد البدوي^(١). ولد تقريباً في سنة خمس وعشرين وثمانمائة بِجِزَاع من أعمال نابلس، وقرأ القرآن عند يحيى العبدوسي والعمدة والعزيري في التفسير والحزقي والنظام المذهب، كلاهما في الفقه. والملحة وبعض الفقه بن مالك، ونحو ثلثي جميع الجوامع، والفقه شعبان الأتاري بتمامها وغيرها^(٢).

ويبدو أن هذه القراءات قد أُنجزها أبو بكر الخليل في بيته الأولى، قرب نابلس، ذلك أنه قديم إلى دمشق، وله من العمر سبعة عشر عاماً، أي سنة ٨٤٢هـ. وكان في دمشق آتِلاً دُبر للحنابلة بسفح جبل قاسيون، وبوسطه مدرسة كبيرة تدعى المدرسة العُمرية، أسسها أبو عمر الكبير (٥٢٨ - ٦٠٧هـ) المولود في (جَمَاعِيل) والمهاجر إلى دمشق إثر استيلاء الفرنجة على الأرض المقدسة^(٣).

وكانت هذه المدرسة هي البيئة الثانية التي أسهمت في تكوين أبي بكر تقي الدين بن زيد الجزاعي، ففي دمشق أخذ أبو بكر «الفقه عن الثقي بن قندس ولازمه، وبه تحرّج وعليه انتفع في الفقه وأصوله والفرائض والعربية والمعاني والبيان. ولازم الشيخ عبد الرحمن بن سليمان الحنبلي، وكذا أخذ الفرائض عن الشمس السبلي وغيره، ولزم الاشتغال حتى برّغ وصار من أعيان فضلاء مذهبه بدمشق، وتصدّى للتدريس والإفتاء والإفادة، بل ناب في القضاء»^(٤١) ويبدو أن أبا بكر لم يكتف بما لدى شيوخ المدرسة العمرية من علوم ومعارف، فقد ارتحل إلى بعلبك وسمع فيها صحيح البخاري^(٤٢)، وكذلك قرأ سنن ابن ماجه على برهان الدين بن مفلح (٨٨٤هـ). وقال العيني (٩٢٧هـ) : إنه سمع على أبي بكر شيئاً منها^(٤٣). فأبو بكر إذن شيخ للعيني، كما أنه كان شيخاً لجمال الدين بن يوسف عبد الهادي الذي قرأ عليه المقنع^(٤٤).

وقد ارتحل شيخنا الجزاعي إلى القاهرة سنة ٨٦١هـ أيام قاضي القضاة عز الدين الكنبالي، فاستخلفه الأخير في الحكم وياشر عنه بالمدرسة الصالحية^(٤٥). وذكر (السخاوي) أن أبا بكر الحنبلي طاف بالقاهرة على من بقي هناك «كالسيد النسابة، والعلم اليفيني، والجلال الحنبلي، وأم هاني المورينية من المسنين، وقرأ على قطعة من القول البدعي، وتناول مني جميعه مع الإجازة، وكذلك قرأ على الثقي الحصني وعلى القاضي عز الدين يسيراً في المطلق وغيره، وعرض عليه النياية فما امتنع خوفاً من انقطاع التودد، وحضر دروس ابن المصمم وأخذ عنه جماعة من المصريين، وربما أفتى وهو في القاهرة»^(٤٦).

والحق أن الجزاعي قد أفتى، وهو بمصر، فقد ذكر (العيني) من جملة فتاويه أن قاضي القضاة عز الدين الكنبالي المتقدم ذكره سئل عن من عليه دين مؤجل، وقصد السرّ وعشّي صاحب الدين من حلوله قبل عود الغريم، فطلب منه ذهباً أو ضامناً فامتنع، وعجز عن رهن أو ضامن، فهل يُحبس أم لا ؟ فأجاب قاضي القضاة عز الدين أن لغريمه منعه من السفر حتى يوثق برهن أو كفيل. قال : وأما حبسه فلا أعرف فيه نقلاً، والمسألة مشكلة جداً. فسئل الشيخ تقي الدين الجزاعي عن ذلك، فأجاب : «إنه لا يُحبس لكنه يُمنع من السفر»^(٤٧).

ولسنا ندري ما المدة التي أمضاها الجزاعي في مصر، ولكننا نعرف أنه حجّ مراراً، وجاور في مكة سنة ٨٧٥هـ. وهناك قرأ مسند إمامه بنماه على الشيخ النجم بن فهد، وعمل قصيدة

نظم فيها سند المسع، وامتدحه فيها أنشدتها يوم ختمه، وكتبها عنه المسع، أوفاً :

الحمد لله الذي هدانا لهذا وكُنْ لهُ مِنْ بَغْيَةِ خِيَانَا

وكذا كتب عدة قصائد من نظمه.

وهذا الخبر الأخير الذي أورده (السخاوي) يرسم ملمحاً جديداً من ملامح شخصية أبي بكر الجزاعي، وهو نظم الشعر. وخلاصة القول في شخصية هذا العالم والفقير الخليل أنه : «كان إماماً علامةً ذكياً طلق العبارة فصيحاً ذنباً متواضعاً طارحاً للتكلف مُقْبِلاً على شأنه ساعياً في ترقى نفسه في العلم والعمل، ومحاسنه خجماً»^(١١)

ويمكن أن نلاحظ أن وفرة العلوم التي حصلها أبو بكر، وسعة الاطلاع التي تمتع بها، قد أفلاؤه ليكون معلماً ومدرساً؛ فمن أخباره أيضاً أنه كان شيخاً من شيوخ المدرسة العمرية. وهي مدرسة تقع في دير الحنابلة المقام في سفح قاسيون. وقد قال فيها الشيخ جمال الدين ابن عبد الهادي «هذه المدرسة عظيمة لم يكن في بلاد الإسلام أعظم منها»^(١٢) ولا نعرف بالضبط متى بدأ شيخنا التدريس فيها. ولكن يمكن القول : إنه كان يتولى حلقة يوم السبت، ويقال إنه نائب عن ابن عباد في حلقة يوم الثلاثاء، وذلك إلى جانب الشيوخ الحنابلة : برهان الدين بن مفلح، وعلاء الدين المرदाوي، وشهاب الدين العسكري، وغيرهم.^(١٣)

وفاته :

توفي أبو بكر بن زهد الجزاعي ليلة الخميس الحادي عشر من رجب سنة ثلاث وثمانين وثمانمائة بصالحية دمشق^(١٤). وذكر ابن طولون (٩٥٣هـ) أن قبره يقع في الجهة الشرقية من جبل قاسيون، ويرقد بجواره أيضاً أخوه الشيخ بهاء الدين عبد الله الجزاعي، وجرارعه ومرادوه كتيرون.^(١٥)

مؤلفاته :

إن حياة هذا الشيخ الخليل لم تكن وفقاً على التعلم والأخذ والتعلم، بل جاوزت هذا إلى العطاء والتأليف والتصنيف، فقد ذكرت المصادر التي ترجمت له مجموعة من كتبه ثمكناً من إحصاء أحد عشر منها، هي بحسب ترتيبها الألفبائي :

١ - الأوائل :

وهو المخطوط الذي ستحدث عنه في القسم الثاني من هذا المقال^(١٦).

٢ - تحفة الراكع والساجد في أحكام المساجد :

وأشار إليه أبو بكر نفسه في كتابه «الأوائل» في باب «المساجد والعبدن»، وسماه : أحكام المساجد. وقد ذكره الزركلي في الأعلام (٦٤:٢) وقال عنه : «جعلته تاريخاً لمكة والمدينة والمسجد الأقصى، ثم ذكر أحكام المساجد»

٣ - الترشيع في مسائل الترجيح :

وعراه له السخاوي في الضوء اللامع (٣٢:١١)، والبغدادى في إيضاح المكنون (٢٨١:١١) والزركلي في الأعلام (٦٤:٢)، وعمر رضا كحالة في معجم المؤلفين (٦٢:٣).

٤ - تصحيح الخلاف المطلق :

وذكره ابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب (٣٣٧:٧)، وكحالة في معجم المؤلفين (٦٢:٣).

٥ - حلية الطراز في حل مسائل الألفاظ :

ونسبه إلى أبي بكر الجراعي، السخاوي في الضوء اللامع (٣٢:١١)، وابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب (٣٣٧:٧) سماه الألفاظ الفقهية، ونعته بأنه مجلد لطيف. والزركلي في الأعلام (٦٤:٢) وقال عنه : «وهو بخطه عندي». ومن هذا الكتاب نسختان في دار الكتب المصرية وفي آخر النسخة الثانية غلبا وردت من القدس أوائل رجب سنة ٨٦٤ في مدلول لفظة «كيسة» ماهو. وهل يجوز إحداثها في بلاد الإسلام (مخطوط رقم ٢٢٨ مجاميع)^(١٧) وقد سماه عمر رضا كحالة : الألفاظ الفقهية - معجم المؤلفين (٦٢:٣).

٦ - شرح أصول ابن اللحام :

وذكره ابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب (٣٣٧:٧)، وحاجي خليفة في كشف الظنون ١١١، فقال في أصول ابن اللحام «وشرحه تقي الدين أبو بكر بن زيد الجراعي المتوفي سنة ٨٨٣ وهو شرح ممزوج أوله : الحمد لله على أفضاله» - كشف الظنون ١١١.

٧ - غاية المطلب في معرفة المذهب :

وعزاه إلى أبي بكر الجراعي، السخاوي في الضوء اللامع (٣٢:١١)، وقال فيه :
«اختصره من فروع ابن مفلح، واعتنى فيه بتجريد المسائل الزائدة على الحرق في
مجلده. وذكره العلّمي، فقال : «وَقَفْتُ عَلَيْهِ» - المنهج الأحمد (مصورة المجمع
بدمشق مج ٢، ٥٠٧:٢). وكذلك ذكره البغدادي في إيضاح المكنون، وسماه :
غاية المطلب في فروع الخاتبة (١٤٢:٢)، وأشار إليه كحالة في معجم المؤلفين
(٦٢:٣).

٨ - فضائل الدرر في موافقات عُمر :

ذكره الزركلي في الأعلام (٦٤:٢).

٩ - مختصر أحكام النساء لابن الجوزي :

ونسبه إلى الجراعي، الزركلي في الأعلام (٦٤:٢).

١٠ - صورة ضياء له : ذكرت في فهرس مخطوطات دار الكتب المصرية (٥٤٩:١)
و (٥٥٠:١).

١١ - قصائد وأشعار : ذكرها السخاوي في الضوء اللامع (٣٣:١١).

وبينما من هذه المؤلفات، التي لا نعرف ما فعلت يد القدر ببعضها، أن نقف
عند أحدها، وهو كتاب «الأوائل» المخطوط، بعد أن نستعرض أسماء كتب هذا
الباب، أو أسماء مؤلفيها.

ثانياً - التأليف في الأوائل :

جَلَمَ الأوائل عِلْمٌ تُعْرَفُ بِهِ أوائل الوقائع والأحداث والابتكارات، وهو فرع من فروع
التاريخ والمناظرات - كما يصفه حاجي خليفة في كشف الظنون (١٩٩:١-٢٠٠)، فكثيراً
ما يتساءل المرء عن أول من فَعَلَ كذا، وأول من صَنَعَ هذا، أو أول من قال كيت وكيت
.... الخ. ولهذا اهتم العرب في القديم والحديث في التأليف في هذا الباب.
ويبدو أن هذا اللون من التأليف قديم في المكتبة العربية. وقد اتصل طريفةً بتأليده، فلدينا
أسماء لمؤلفين ضربوا سهماً في هذا المضمار، منذ مطلع القرن الثالث الهجري. وثمة إشارات
أخرى إلى مؤلفين تتراوح فيبانهم ما بين القرنين الثالث، والحادي عشر الهجريين. ومن المعروف

أن كثيراً من مؤلفات هؤلاء وأولئك قد ضاع، ولم يصل إلينا إلا القليل منها، وسنعرض الآن لأسماء من ألف في باب (الأوائل) مراعين التعاقب التاريخي لتلك الأسماء :

١ - ابن الكلبي (نحو ٣٠٦هـ) : وكتابه (الأوائل) ذكره ابن النديم في الفهرست، ط تجديد ١٠٩.

٢ - المدائني : علي بن محمد (٢٢٥هـ) وله مصنف اسمه الأوائل ذكره ياقوت الحموي في معجم الأدباء، ط - الرفاعي (١٤: ١٣٨).

٣ - أحمد بن أبي عبد الله البرقي^(١٨) (٢٧٤ أو ٢٨٠هـ) وقد ذكر كتابه (الأوائل) ياقوت في معجم الأدباء (٤: ١٣٥).

٤ - أبو بكر أحمد بن محمد بن عمر النيل المعروف بأبي عاصم الضحاك (٢٨٧هـ) وكتابه (الأوائل من المسند) ذكره كارل بروكلمان في تاريخ الأدب العربي ٣١٧:٣.

٥ - أبو عروبة الخزازي (٣١٨هـ) وكتابه (الأوائل) أشار إليه فؤاد سزكين في كتابه تاريخ التراث العربي - الترجمة العربية (مج ١ - ج ١ ص ٣٤٨) وقال : ذكره ابن حجر في الإصابة (٣/ ١٢٣٥).

٦ - أبو يعقوب إسحق بن سليمان الطيب القيرواني (٣٢٠هـ) وكتابه (الأوائل والأقوال) ذكره البغدادي في إيضاح المكنون (٢: ٢٧٥).

٧ - أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (٣٦٠هـ) وكتابه الأوائل، طبع في بيروت ١٩٨٣ بتحقيق محمد شكور بن محمود الحاجي أمير. وأشار فؤاد سزكين إلى أن ثمة نسخة عخطية لهذا الكتاب في المتحف البريطاني - الملحق، مخطوطات شرقية ٢/ ١٥٣٠ (الأوراق ١٨٩ ب - ١٩٦، ٨٦٦هـ) - انظر تاريخ التراث العربي - الترجمة العربية (مج ١ - ج ١ ص ٣٩٥). ويبدو أن المحقق لم يطلع على مخطوطة المتحف البريطاني لأوائل الطبراني.

٨ - سعيد بن سعدون العطار (ت قبل ٣٧٠هـ)، ذكر كتابه ابن النديم في الفهرست، ط تجديد ص ١٩٧.

٩ - المرزباني (٣٨٤هـ)، وكتابه الأوائل أشير إليه في الفهرست ١٤٨. وقال ابن النديم فيه : «فيه أخبار الفرس القدماء وأهل العدل والتوحيد، وشيء من مجالسهم ونظرمهم نحو مائة وخمسين ورقة».

١٠- العسكري : اخسن بن عبد الله (٣٩٥) وكتابه الأوائل طبع بدمشق، بتحقيق محمد المصري ووليد قصاب، منشورات وزارة الثقافة ١٩٧٥ - ١٩٧٦.

١١- محمد بن عبد الله الشبلي (٧٦٩هـ) وكتابه : الوسائل إلى معرفة الأوائل، ومنه نسخة مصورة في مجمع اللغة العربية بدمشق.

١٢- كمال الدين عبد الرحمن بن محمد العاتقي الحلبي، وصنف كتابه سنة ٧٨٨هـ، ومنه نسخة بخط المؤلف في الخزنة القروية - انظر تاريخ الأدب العربي لبروكلمان (٢٥٣:٢).

١٣- ابن خطيب داريا محمد بن أحمد بن سليمان يعقوب (٨١٠هـ) - انظر كشف الظنون ١٩٩:١.

١٤- عبد الكريم بن إبراهيم الجبلي الريحبي (٨٣٢هـ) وكتابه : الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل - انظر فهرس مخطوطات المكتبة الظاهرية - الجامع ٣٥٣:١.

١٥- أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ) وكتابه : إقامة الدلائل على معرفة الأوائل.

١٦- إبراهيم بن عمر السويني (٨٥٨هـ) وكتابه : مختصر محاسن الوسائل إلى معرفة الأوائل، وقد اختصر كتاب الوسائل إلى معرفة الأوائل للشبلي - انظر كشف الظنون ٢٠٠:١.

١٧- أبو بكر تقي الدين بن زيد الجراغي الحنبلي (٨٨٣هـ)، وكتابه (الأوائل) هو محور مقالنا هذا.

١٨- السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (٩١١هـ) وكتابه الوسائل إلى معرفة الأوائل، وقد نشر في القاهرة ١٩٨٠، بتحقيق إبراهيم العدوي، وعلى محمد عمر. وذكر بروكلمان أن مُصَنَّفًا لم يذكر اسمه ألف كتاباً سماه تذكرة الأوائل في إصلاح كتاب الوسائل للسيوطي، وهو في باريس أول (٩٣١ - انظر تاريخ الأدب العرب ٢٥٣:٢).

١٩- محمد بن علي بن طولون (٩٥٣هـ) وعنوان كتابه : عنوان الرسائل في معرفة الأوائل وذكره الزركلي في الأعلام (٢٩١:٦)، وأشار إلى أنه مخطوط.

٢٠- القاضي علي دده. وقد فرغ من تأليف كتابه : محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر،

سنة ٩٩٨هـ. وطبع في بولاق بمصر سنة ١٣٠٠هـ. وهو شديد الاتكاء على كتاب السيوطي الأتف الذكر.

٢١ - المولى عثمان بن محمد المعروف بدوقاكين زاده الرومي (١٠١٣هـ) وكتابه : أزهار الحمال في وصف الأوائل. وهو مطبوع.

وكذلك حَوِّثَ بعض الكتب فصولاً مُهمّة عن الأوائل وأخبارهم لعل أهمها :

- ١ - مُصنّف ابن أبي شيبة. (٢٣٥هـ)، وبعضه مخطوط في الظاهرية (رقم ٢٨٨ و ٢٨٩ حديث) وهي الأجزاء ٧ و ٨، ١١ و ١٢.
- ٢ - المعارف لابن قتيبة (٢٧٦هـ).
- ٣ - المحاسن والمساوي، لليبي (٤٥٨هـ).
- ٤ - تلقيح مفهوم الأثر لابن الجوزي (٥٩٧هـ).
- ٥ - صبح الأعشى للقلقشندي (٨٢١هـ).

ولسنا بصدد تقييم جميع هذه المُصنّفات، لأن الكثير منها قد ضاع، أو لم يُطبع بعد. أما ما بين أيدينا من كتب الأوائل المستقلة بذاتها، فهو : كتاب الأوائل للطبراني (٣٦٠هـ)، وكتاب الأوائل للعسكري (٣٩٥هـ)، وكتاب السيوطي (٩١١هـ)، وكتاب علي دده الذي فرغ من تأليفه سنة ٩٩٨هـ، وكتاب أزهار الحمال في وصف الأوائل لدوقاكين زاده الرومي (١٠١٣هـ)، وها نحن اليوم نقدم للقراء مخطوطة الأوائل لأبي بكر الجراحي الحنبل (٨٨٣هـ).

ثالثاً - المخطوط :

مخطوطتنا هذه توجد ضمن مجموع، في مكتبة برلين بألمانيا الغربية، رقمه ٩٣٦٨. وهي تقع في ١٩ ورقة (٩٧ ب - ١١٥ آ). وقياس الورقة ٢٢,٥ × ١٧ سم. وعدد السطور في الصفحة الواحدة يتراوح بين ٢٢ و ٢٦ سطراً. وفي كل سطر ما بين ١٣ و ١٥ كلمة. والخط عادي مُهُمَلٌ غالباً.

والنسخة التي نتحدث عنها نسخة في متبى النفاضة، فقد كُتِبَتْ بخط يد المؤلف. ووقع الفراغ منها في ثاني عشر شهر ربيع الأول سنة ٨٨٣هـ، فقد جاء في الورقة الأخيرة من المخطوطة هذا النص الثمين :

«وكان الفراغ منه في ثاني عشر شهر ربيع الأول عام ٨٨٣هـ بصالحية دمشق الشام على يد أبي بكر بن زيد الجراغي الحنبلي، وهو مؤلفه وجامعه، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات. والحمد لله الملك المجيد حمداً لا ينقطع ولا يبيد، وحصل الله على سيدنا محمد خاتم النبيين والمرسلين، وعلى جميع عباد الله الصالحين وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين، وحسبنا الله ونعم الوكيل».

ومن غريب الصدف أن يكون هذا المصنف، هو آخر مُصنِّفات أبي بكر بن زيد الجراغي الدمشقي؛ ذلك أنه - كما تقدّم - مات في السنة ذاتها التي فرغ فيها من إعداد هذا الكتاب، وهي سنة ٨٨٣هـ. وإذا كان قد فرغ من كتابه هذا (الأوائل) في ١٢ ربيع الأول ٨٨٣هـ ومات في ١١ رجب ٨٨٣هـ، فإن أربعة أشهر فقط تقع بين فراغه من أوائله، ووفاته. وإذا كان هذا الفقيه الحنبلي قد ألف كتابه، وله من العمر ٥٨ سنة، فإن من شأن ذلك أن يكون أثره الأخير هذا، قد أُودِعَ خلاصة معارفه وعلومه وخبراته.

والحق أن هذا الكتاب، الذي فرغنا من تحقيقه، يعكس معارف واسعة لأبي بكر الجراغي، ويكشف عن اطلاع كبير على كتب كثيرة في التراث، ومؤلفات عديدة للسلف، طابعها العام ديني حنبلي نقلي، وخصائص التفكير الحنبلي في التأليف والعقيدة والفقه، واضحة في (الأوائل). فالمصنف يُكثر من النصوص والقول دون أدنى اهتمام بالمناقشة أو التدقيق أو التحليل. وكأن قاعدة: «لا اجتهد مع النص» كانت وراء فكر الرجل، وهو يصنف كتابه.

وقد أخصّيتُ مصادر أبي بكر في مخطوطته هذه، قَبَلْتُ ثَمَنًا وستين كتاباً، كانت خزائن المكتبة العمريّة، بصالحية دمشق، هي التي أمّنته بها - فيما نظن. وكثير من هذه الكتب كتب في الحديث، والفقه، والأصول، والتاريخ. وبعضها كتب في الفن الذي ينتمي إليه الكتاب ذاته، مثل كتاب الأوائل للطبراني ٣٦٠هـ، الذي يبدو أن شيخنا كان يُعَلِّم من قيمته لهذا استَوْعَبَهُ في كتابه هذا، أو كاد، ومثل كتاب الأوائل لأبي هلال العسكري (٣٩٥هـ)، الذي أكثر أيضاً أبو زيد من الاتكاء عليه. وهذا الاتكاء أغراني بأن أُلْحِصَ بعض أوجه التشابه والتباين، بين كتابي: أبي هلال، وأبي بكر الحنبلي، فقلّعتي بهذه المقارنة بين المطبوع، والمخطوط، أفدّم صورة موجزة عن الكتاب الأخير للقارئ العربي:

١ - ألف أبو هلال العسكري كتابه «الأوائل» سنة ٣٩٥هـ كما يقول في آخر إحدى نسخ الكتاب المطبوع (انظر المقدمة)، وكذلك ألف أبو بكر الحنبلي كتابه سنة ٨٨٣هـ.

والسنة المذكورة، هي آخر سني حياة كل منهما. وهذا يعني أن كلا الكتابين دأب على إكمال ثقافة صاحبه، وتعميق صحته وتكوينه.

إن الطابع الأدبي التربوي يعلب على «أوائله» أبي هلال، في حين يعيب الطابع الديني والفقهني والخسبي على «أوائله» أبي بكر الخراساني الخسبي.

م. ت. ر. أ. أبو بكر التريبي الترمذي في «أوائله»، فكان بداً مخالفاً مبعث أبي هلال، الذي وقف الباب الأول والثاني على بعض الأوليات في الحاشية، والسبب لثالث على أوليات الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، والرابع على الصحابة والتابعين، والخامس على منوك الإسلام .. الخ. وكذا تخطى الخسبي في «أوائله» عن مبدأ التصنيف والتسوية والترتيب، وهو مبدأ يلاحظه المرء في كثير من كتب أبي هلال. وفي كتابه الأوائل خاصة

٢

٣

٤

قسم العسكري «أوائله» إلى عشرة أبواب، فقسم أبو بكر «أوائله» إلى عشرين باباً هي الأول : في حصال المعطرة والوصوء وما يتعلق به.

والثاني : في الصلاة.

والثالث : في المساجد والعينين.

والرابع : في الخائز.

والخامس : في الصدقة والصوم والحج

والسادس : في المحرة والسبابة والإسلام.

والسابع : في الإمامة والجهاد والعائم والمخرب.

والثامن : في الميراث والمكاتب.

والتاسع : في النكاح والولاية والعتق والحنع والقمان والظهار

والعاشر : في القود والذبات والدماء والحدود

والحادي عشر : في الأشكل واللباس.

والثاني عشر : في القضاء وما يتعلق به

والثالث عشر : في البنان والخراب والهلاك.

والرابع عشر : في الحنن والحقوق والحرف والآلات

والخامس عشر : في المحدثات والبدع.

والسادس عشر : في التصانيف.

والسابع عشر : في أوَّل الآيات مخرجاً.

والثامن عشر : في أصول الجنة والبروج والنار.

والتاسع عشر : فيما يتعلق بسيد السادات وأشرف الأحياء والأموات عليه من الله

أفضل الصلوات وأزكى التحيات.

والعشرون : في أشياء متشورة.

٥ - وقف أبو هلال الباب الأخير عده عن (أشياء متفرقة)، وفعل أبو بكر فعله، فوقف

بابه الأخير على (أشياء متشورة).

ولتقديم فكرة أدق وأوضح عن هذه المخطوطة التي بين أيدينا رأينا أن نبشر هنا

لباب التاسع عشر من أوائل أبي بكر، وهو يتعلق بالنبي العربي محمد بن عبد الله

صلَّى الله عليه وسلم.

(ق ١٦/٢) الباب التاسع عشر

يتعلق بسيد السادات وأشرف الأحياء والأموات عليه من الله الصلوات وأزكى التحيات

وأول ما بُدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة، روى

إسحاري (٢) وأول ما رُوي عنه من التقرآن اقرأ (٣) وأول روحاته حديثه (٤) وأول

أولاده القاسم، وبه كان تكسى (٥). وأول عرواته الأبوته، وهي وذات (٦) وهو أول من حم

الكتب عن قريش وأهل الحجاز حين احتاج إلى مكانة النبوة، فقبل له بهم لا يقبلون

كتاباً إلا محتوماً، فأتحد حاتم من ذهب، ثم ضربه، وأتحد حاتم من ورق. وذكر هذه

الأخيرة الحسن بن عبد الله بن سعيد في كتاب لأوائل (٧) والباقي مشهور

وذكر حسن بن عبد الله أن أول هدية أُهديت للنبي صلى الله عليه وسلم بالهدية هدية

رَبْد بن ثابت، مصنعة مبرودة خبزاً وسمناً ولماً (٨) وذكر بن أبي شيبة أنه أول شيعر في

الجنة، وهو أول شاعر وأول مشعر. وأول من تشقَّع لأرضه، وأول من نفتح له الجنة،

وأول من يدخلها، وأول من يجتاز على الصراط المستقيم. وإذا ضيق الناس يوم القيامة فهو

أول من يفتق

قال القاضي أبو يعلى (٩) أول أرض ملكها رسول الله صلى الله عليه وسلم من وصية

مُخْبِرِيق اليهودي (١٠)، من أمون بني النضير، عن الواقدي ذكر أن مُخْبِرِيق اليهودي كان

خزناً من علماء بني النضير، أمر برسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان له شعبة حويط

فوصى بها لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين أسلم. وقائل منعه بأخذ، حتى قيل. وهي من صدقات النبي صلى الله عليه وسلم.

الصدقة الثانية أرضه من أموال بني النضير بالمدينة. وهي أول أرض أفتاها الله على رسوله صلى الله عليه وسلم.

وذكر أبو القاسم الطبراني أن أول ما سُمِعَ من رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة : «إطعموا الطعام، وإفشفوا السلام» (ق ١٦/ب) وصلوا الأرحام وصلوا بالليل، والناس نيام، تذخّلون الجنة بسلام» (٢٩). وأن أول ما تلقى جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم إذا جاء إليه بالقرآن : «بسم الله الرحمن الرحيم» (٣٠).

وأول ما ثبوت به النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع أن قال : إن الله يؤصّيكم بأمتيكم، إن الله يؤصّيكم بأمتيكم، إن الله يؤصّيكم بأمتيكم، إن الله يؤصّيكم بالأقرب فالأقرب (٣١).

وأول شكوى رسول الله صلى الله عليه وسلم الأخيرة كان في بيت أم سلمة، ثم حول إلى بيت عائشة (٣٢).

وأول من يشفع له رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمته أهل المدينة وأهل مكة وأهل الطائف (٣٣).

وذكر ابن أبي شيبة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : أول ما نهاني زبي عن وجل عن عبادة الأوثان، وعن شرب الخمر، وعن ملاحاة الرجال. ولعل عن الشعبي أنه قال : مكر رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤم أخذ بالمشرّكين، وكان أول يوم مكر فيه.

خاتمة :

وهكذا نكون قد عرفنا، ولعله للمرة الأولى، في هذا العصر، علماً مستلياً حديثاً، من القرن التاسع الهجري، لم يسبق له أن حظي بعناية لذكر من الباحثين - فيما نعلم - كما عرفنا مجموعة كبيرة من آثاره، ووقفنا عند إحدى مخطوطات كبه، وهو كتاب (الأوائل) الذي يتميز عن غيره من كتب الأوائل الأخرى بأنه ذو طابع ديني، كتبه شيخ من شيوخ الحنابلة بدمشق سنة ٨٨٣هـ. كما أطلقنا أخيراً على منبج الكتاب من خلال فصل من فصوله.

● المصادر والمراجع ●

- (١) ابن أبي بعل: طبقات الحنابلة، نشر محمد حامد النقي، القاهرة ١٩٥٢.
- (٢) البخاري: صحيح البخاري، القاهرة د.ت.
- (٣) بدوان، عبد القادر: سلسلة الأبطال ومسامرة الحبال، دمشق ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م.
- (٤) بروكلمان، كارل: تاريخ الأدب العربي، ترجمة عبد الحليم الجار وآخرون، ط ٣، القاهرة ١٩٧٤ فما بعد.
- (٥) البغدادي، إسماعيل: إيضاح المكنون، منشورات مكتبة الشئى ببغداد، د.ت.
- (٦) البغدادي، الخطيب: تاريخ بغداد، القاهرة ١٩٣٦.
- (٧) الحموي، ياقوت: معجم الأديباء، ط الرفاعي، القاهرة ١٩٣٦.
- (٨) خليفة، حاجي: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، منشورات مكتبة الشئى ببغداد، د.ت.
- (٩) الزركلي، خير الدين: الأعلام، ط ٥ دار العلم للملايين بيروت ١٩٨٠م.
- (١٠) السخاوي، خير الدين محمد بن عبد الرحمن: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، نشر مكتبة القذافي، القاهرة ١٣٥٥هـ.
- (١١) السكاوي، علاء الدين دة: محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر، ط بولاق ١٣٠٠هـ.
- (١٢) السوطي، عبد الرحمن جلال الدين: الوسائل إلى معرفة الأوائل، تحقيق إبراهيم العنوي، وعلى محمد عمر، القاهرة ١٩٨٠م.
- (١٣) الشئى، جميل: مختصر طبقات الحنابلة، دمشق ١٣٣٩هـ.
- (١٤) الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد: الأوائل، تحقيق محمد شكور بن محمود الحايحي أمير، بيروت ١٩٨٢م.
- (١٥) ابن طولون، محمد: ١ - فضة دمشق، لتحقيق صلاح الدين المسند، دمشق ١٩٥٦.
- ٢ - القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، تحقيق محمد أحمد دهمان، دمشق ١٩٤٩.
- (١٦) العسكري، أبو هلال: الأوائل، تحقيق محمد المصري ووليد قصاب، دمشق ٧٥-١٩٧٦.
- (١٧) الطبراني، عبد الباق: مختصر شبه الطالب وإرشاد الدارس إلى أسرار دور القرآن والحديث والادرس، تحقيق صلاح الدين المسند، دمشق ١٩٤٧.
- (١٨) القليبي: الشيخ الأحمدي في تراجم أصحاب الإمام أحمد (مصورة بجمع اللغة العربية بدمشق).
- (١٩) ابن العباد الحسني: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ط ٢ بيروت ١٩٧٩.
- (٢٠) كحالة، عمر رضا: معجم المؤلفين، دمشق ١٩٥٧.
- (٢١) ابن النديم، محمد بن إسحق: الفهرست، ط رضا نجند، بيروت ١٩٨٦.
- (٢٢) النعمي، عبد القادر بن محمد: الدارس في تاريخ الدارس، تحقيق جعفر الحسني، دمشق ١٩٤٨.
- (٢٣) ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وصحبه، القاهرة: د.ت.
- (٢٤) فهرست مخطوطات دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٦٤ (ج ١).

● الموامش ●

- (١) الشيخ أحمد البدوي هو: السيد الجليل الشيخ أحمد بن علي بن محمد بن أبي بكر البدوي الشريف الحسبي السيب من بني بري - قبيلة من غرب الشام. وقد سكن والده في الغرب فولد هناك الشيخ أحمد في مدينة طرس سنة ٥٩٦هـ. وقد حفظ القرآن وقرأ شيئاً من فقه الشافعي وعُرف بالبدوي لقومه الشام. فقد كان يلبس ثابتي لا يبدلهم. وزار سورية والعراق. وكان صاحب كرامات. وقد توفي بمشقة في مصر سنة ٦٧٥هـ - شذرات الذهب ٣٤٥:٥، والأعلام ١٧٥:١.
- (٢) الفوائد اللامع ٣٢:١١.
- (٣) انظر المدارس في تاريخ المدارس ١٠٠:٢، والقلائد الجوهريّة ١٦٥:١ فما بعدها. وقد كان استيلاء القويحة على الأرض المقدسة سنة ٤٩٢هـ - انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٨٢:١٠.
- (٤) الفوائد اللامع ٣٢:١١.
- (٥) المصدر السابق ٣٢:١١.
- (٦) انظر المدارس في تاريخ المدارس ٥٨:٢، وقصداً دمشق لابن طولون ٣٠:١.
- (٧) انظر مختصر طبقات الخبابة للشطحي ٧٤ - ٧٥.
- (٨) انظر الشيخ الأحمدي للشمسي (مصورة مجمع اللغة العربية بدمشق) ج ٢، ٥٠٧:٢، وشذرات الذهب ٣٣٧:٧.
- (٩) الفوائد اللامع ٣٢:١١.
- (١٠) الشيخ الأحمدي للشمسي (مصورة المجمع) ج ٢، ٥٠٧:٢.
- (١١) الفوائد اللامع ٣٣:١١.
- (١٢) انظر سادسة الأطفال ومغامرة الجبال، لعبد القادر بدران ٢٤٤. ومن المعروف أن كتب الذكبة العمريّة، أو بعضها، كانت إحدى مكونات الذكبة الظاهريّة بدمشق في هذا العصر - انظر سادسة الأطفال ١٢٠.
- (١٣) انظر المدارس في تاريخ المدارس (المدرسة العمريّة)، والقلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحية لابن طولون ١٧٣، ومختصر شبه الطالب للطبري ١٣٠-١٣١.
- (١٤) الفوائد اللامع ٣٣:١١، والشيخ الأحمدي (مصورة المجمع) ج ٢، ٥٠٨:٢، وشذرات الذهب ٣٣٧:٧.
- (١٥) انظر القلائد الجوهريّة ٤٥١:٢.
- (١٦) وقد وفقاً إلى الحصول على نسخة منه بخط يد صاحبه، وذلك بفضل الأئمة (الذكافون كوكيلسكي) من جمهورية لاتفيا الاتحادية فلها نسجل الشكر والامتنان.
- (١٧) انظر فهرس مخطوطات دار الكتب المصرية ٥٤٩:١.
- (١٨) ورد في معجم الأديباء (الرقّي)، وهو في معجم المؤلفين (٩٧:٢) الرقي، على الصواب.
- (١٩) وهو مخطوط في الظاهريّة ضمن المصنوع ١٠٨٨ - انظر فهرس مخطوطات المكتبة الظاهريّة، الجامع ٢٤٥:١ ونشر هذا الكتاب في بيروت ودمشق عام ١٩٨٥ بتحقيق عبد الله الجبوري وكذلك نشره في الكويت ١٤٠٥هـ محمد بن ناصر العجمي.

(٢٠) صحيح البخاري ٣:١. ونص الحديث هناك عن عائشة رضي الله عنها : «أول ما بيده به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الزخى الزوايا الصاخة في اليوم. فكان لا يرى زوايا إلا جانت بقل ظن الصبح. ثم خُتِبَ إليه الصلاة، وكان يخطو بعد حراء فينحش به». وانظر الأوثال للطبراني ٤٢، والأوثال للمسكوي ١٤٥:١.

(٢١) في الأوثال للطبراني عن أبي سلمة، وسألت جابر بن عبد الله : ألي القرآن أول أول ؟ فقال : يا أيها السدوق - الأوثال ٤٣، انظر فتح الباري ٢٨:١.

(٢٢) الأوثال للمسكوي ١٥٩:١.

(٢٣) في الأوثال للمسكوي أن أول أولاده عبد الله - ١٥٩:١. وفي السيرة ٢٠٢:١. والمعارف ٦١ أن أول أولاده صلى الله عليه وسلم، وأكبرهم، القاسم، وبه كان يكنى.

(٢٤) انظر السيرة ٥٩١:١. والأهواء قرية من أعمال القرع من المدينة، وتسمى غزوة الأهواء غزوة وأذان. وكانت بين النبي عليه الصلاة والسلام وقريش. ووقعت في السنة الأولى للهجرة. انظر معجم البلدان (الأهواء)، والأوثال للمسكوي ١٧١:١.

(٢٥) الأوثال للمسكوي ١٤١:١. ونص الحديث في الأوثال ونقل عن علي : «مُحَمَّدٌ رَسُوْلُ اللَّهِ فِي ثَلَاثَةِ أَسْطُرٍ، مُحَمَّدٌ فِي مِطْرٍ، وَرَسُوْلٌ فِي مِطْرٍ، وَالثَّلَاثُ فِي مِطْرٍ. وَكَانَ فِي يَدِهِ حَتَّى مَاتَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَفِي يَدِ أَبِي بَكْرٍ حَتَّى مَاتَ، وَفِي يَدِ عُثْرٍ حَتَّى مَاتَ، وَفِي يَدِ عَلِيٍّ حَتَّى سَبَّ سَبِيْنًا. وَالْحَقُّ فِي طَبَقَاتِ ابْنِ سَعْدٍ ٤٧٣:١.

(٢٦) الأوثال للمسكوي ١٦٩:١.

(٢٧) القاضي أبو يعلى هو : محمد بن الحسين بن محمد بن علف أحمد، أبو يعلى المعروف بابن الفراء. عالم عصره في الأصول والفروع، وهو أحد الفقهاء الحنابلة في بغداد. توفي سنة ٤٥٨ هـ وله تصانيف كثيرة - انظر تاريخ بغداد ٢٥٩:٢، وطبقات الحنابلة ١٩٣:٢-٢٣٠ والشفا ٣٠٩:٣.

(٢٨) تخليق البيهقي : صحابي كان من علماء اليهود وأتباعهم أسلم، وأوصى بأمواله للنبي صلى الله عليه وسلم، مات في غزوة أحد سنة ٣ هـ. انظر الإصابة ٧٨٥٢ - والأعلام ١٩٤:٧.

(٢٩) الأوثال للطبراني ٦٦، وقد رواه عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه.

(٣٠) روى الطبراني هذا الحديث عن عبد الله بن عباس، قال : «كَانَ جَبْرِئُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذَا جَاءَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْقُرْآنِ، أَوَّلَ مَا يَقُولُ عَلَيْهِ : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فَإِذَا قَالَ جَبْرِئُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، قَالَ: عَلِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَدْ عَظِمَ السُّؤْرَةُ، وَفُصِّحَ الْآخَرَى». الأوثال للطبراني ٧٠.

(٣١) الأوثال للطبراني ٩٧، ورواه بسنده عن أبي أمامة الباهلي.

(٣٢) الأوثال للطبراني ١٠٣، ورواه بسنده عن أسماء بنت عيسى.

(٣٣) الأوثال للطبراني ١٠٥، ورواه بسنده عن عبد الله بن جعفر.